الحــوزة العلميّـة

قـراءة تــاريـخيّـــة لـرؤيـــة مـسـتقبـليّـــة

الشيخ جـعـفـر الـمـهـاجـــر

لسنا نـدري كيف ولا متـى صـارت هذه الكلمـة " حـوزة " إسمـاً لمـؤسـسـة الإعـداد والبحـث في العلـوم الدينيـة والمعارف الـمُهيئـة لـهـا عـنـدنا . فالكلمـة تـعـنـي في أصـل اللغـة الجمـع والضـم . فهـل قصـد واضعوا الكلمـة ، إن كان هناك بالفعل مَن وضعها عن وعـي وقصـد ، هـذا المعنـى باعتبارها المؤسسـة التي تجمع وتضـم المعنيين بالإعـداد والبحث في تلك المعارف ؟ إن صـحّ ذلـك فتكون هـي وكلمـة " جامعـة " من باب واحـد . وعلى كل حال فـإن للكلمـة دلالتهـا . وآمـل أن تكون لهـذه الملاحظـة فائدتها للبحـث فيما سيـأتـي .

أقتـرح أن نُـميّـز بين مُصطلَـح " حوزة " و " مـركـز علمـي " . فـ " قم " اليوم و " النجـف " قبل أن ينزل بها ما نـزل ، و" جبل عامـل " و " الحلّـة " أيام مجـدهما ، كل هذه مراكـز علميّـة ، تجمع حوزات ، مُـتزامنـة أو مُـتواليـة . امّـا المـؤسسـات الـمُنتشترة في كثير من مُـدن " إيران " وفـي " لبنـان " اليوم فهـي حوزات ، يمكـن أن تجعـل من مـيدان عملهـا مركـزاً علميّـاً إذا نجحت وأنجبت علمـاً وعلمـاء ذوي أثـر . على أننـا في هـذه العجالـة سنسير مـع السائريـن ، ونُبـقـي على مُصطلَـح " حـوزة " على عمومـه ، سيـراً مع خطّـة هـذه النـدوة .

(١)

مهمـا يكـن ، فـإن أول تجمّـع نعرفـه لدارسيـن وباحثين شيعة إماميين ، هـو ذلـك الذي الـتـأم في " قُـم " ، وكـان لـه امتـداد وإشعـاع إلـى " الـري " ، حيـث " طهـران " اليـوم . وأيضـاً إلى ماوراء النهـر ، أي إلـى ما نسميـه الـيـوم " آسـيـة الوسطـى " . وخصوصـاً في " سمرقنـد " و " بخارى " و " كَـش " و " فاريـاب " وغيرهـا .

من الثابـت أن " قـم " كانت مـركـزاً علميّـاً منـذ أيـام الإمـام الهادي (ع) على الأقـل ، أي منذ أوائـل القرن الثالـث للهجـرة / التاسـع للميلاد . وقـد اختـص

أعلامها بعلم الحديث ورجاله . ونهضوا بتصنيف ونقد المجموعات الحديثيّة . والفضل في تاسيسها للعلماء والمحدّثين الأشعريين . وهم بطن من مُذحج . هاجر أسلافهم من " الكوفة " بُعيد السنة ٨٣ هـ / ٧.٢ م ونزلوا " قم " . وتذكر كتب الرجال عشرات الأسماء المنسوبين هكذا " الأشعري القمّي " . كما تذكر العشرات منهم المنسوبين إلى مختلف مُدُن ما وراء النهر . وفي " الري " نشأ المحدث الجليل محمد بن يعقوب الكليني (ت : ٣٢٨ أو ٢٩) صاحب كتاب (الكافي) الشهير . وإذا كنا نعرف اليسير عن سر نهوض " قم" وجارتها " الري " ، فإن الغموض التام يُحيط بظروف بروز تلك الأصقاع البعيدة فيما وراء النهر . وأظن ظناً أن سر بروزها يتصل بما كان يقوده الأئمة منذ الإمام الكاظم (ع) من نشاط بالغ السريّة والدقّة . والبحث جارٍ على هذه النقطة ، ونأمل أن نصل إلى نتائج بحجم الأسئلة . ونختم هذه الفقرة بأن نطلب من المُستمعين الأفاضل أن يحفظوا في أذهانهم أن القوم في كل هاتيك المراكز أو الحوزات كانوا أهل حديث .

(٢)

التجمّع الثاني التام في " بغداد " . ونحن نعرف أن الكليني تحوّل إلى سُكناها من " الري " ، وحدّث بها . وكان له فيها مجلس عامر بالعلماء الذين ارتحلوا إليها للتحمّل عنه . ومع ذلك فإن الفضل في انضمام " بغداد " إلى مُسلسل الحوزات العلميّة الإماميّة يعود إلى الشيخ المفيد (ت : ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) الذي أنشا من حوله نشاطاً علميّاً كبيراً استمر زهاء نصف قرن . من أبرز مَن أنجبته السيد المرتضى (ت : ٤٣٦ هـ / ١٠٤٣ م) ثم الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) . وهو الذي تحوّل عنها إلى " النجف " ، لأسباب تتصل بتبدّل المناخ السياسي المؤاتي في " بغداد " ، بعد أن استولى السلاجقة على السلطة فيها . وأسس الحوزة الثالثة في مُسلسل الحوزات الرئيسيّة ، وذلك سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) . ولنُسجّل هنا أيضاً أن القوم في " بغداد " كانوا أهل كلام . يعني أن اهتمامهم الأساسي كان يدور على المسائل العقيديّة ، من تنظير وجدل ومناظرات . مع شئ من العناية بعلم جديد هو علم الفقه . هو مؤشّر إلى تحوّل عميق في بُنية النشاط العلمي المبذول وأولويا ته . نجد أوفى تعبير عنه

في أوسع كتاب فقهي إمامي حتى ذلك الأوان هو (المبسوط) للشيخ الطوسي .

(٣)

من المتوقّع أن تكون " النجف " هي الحوزة العلمية الثالثة ، لأنها تملك أعلى مكوّنات هذا الموقع : جوار أمير المؤمنين (ع) ، وقيادة الشيخ الطوسي . لكن الذي حصل أنها لم تعِش إلا ما بقي من عمر مؤسسها ، أي زُهاء اثنتي عشرة سنة . أضف إليها ما يُستفاد عادةً من قوّة الإستمرار . كان الدور التالي محفوظاً لبلدة صغيرة لم تكن حتى ذلك الأوان شيئاً مذكوراً هي " الحلّة " .

نعتقد أن سرّ بروز " الحلّة " من حيث لا يتوقّع أحد ، وما أهّلها لأن تنتزع الأوليّة من " النجف " هو في الخط الفكري الذي ابتدعته وفرضته بكامل الجدارة والإستحقاق على النهج الشيعي الإمامي . وهو بالتالي في معدن الرجال الأفذاذ الذين قادوا نهضتها . نذكر منهم مؤسس مجدها محمد بن إدريس (٥٩٨ هـ / ١٢٠٠ م) سبط الشيخ الطوسي وصاحب (السرائر) ، وجعفر بن الحسن الشهير بالمحقق الحلّي (ت : ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) صاحب (شرائع الإسلام) ، والحسن بن يوسف ، الشهير بالعلاّمة الحلّي (ت : ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) ، وهو أشهر من أن يُعرّف .

في " الحلّة " نضج النهج الفقهي ، المبني على المنهج الأصولي العقلي . الذي غطّى على سمة " قم " المبنية على الحديث ، وسمة " بغداد" الكلاميّة ، وأيضاً على النهج الفقهي النقلي ، الذي بلغ غايته بكتاب (المبسوط) للشيخ الطوسي . ومُذ ذاك أصبح النهج الرسمي المعمول به حتى اليوم . لم تخرج عليه إلا المدرسة الأخباريّة .

(٤)

إزدهرت " الحلّة " زهاء الأربعة قرون ، مُتربّعة على القمّة . ولم تضمحل ويهُن أمرها إلا بعد أن أنجبت إبناً ، ربما صحّ القول أنه أكبرمنها،

وعلى الأقل ليس دونها حجماً وأثراً . ذلك هو " جبل عامل " ، رابع حلقة في هذه السلسلة المتصلة الحلقات .

ولقد بيّنا في كتابنا القادم (جبل عامل بين الشهيدين) الظروف التاريخيّة والسياسيّة التي برز فيها "جبل عامل " . ونقول الآن على نحو الإختصار الشديد ، أن بروزه كان رداً على الكوارث التي نزلت بالتشيع في غرب " الشام " . إبتداءً من الجائحة الصليبيّة التي دمّرت مراكزه الكبرى " حلب " و " طرابلس " و " طبترّية " وإنتهاءً بالسياسة التي سارت عليها العناصر العسكرية التي نزلت المنطقة على موجة الجهاد ضد الصليبيين ، من سلاجقة وأيوبيين ومماليك . فكان منها أن أكملت ما بدأه الإحتلال .

بطل النهضة العامليّة هو محمد بن مكي الجزيني ، الأشهر بلقب الشهيد الأول (ق : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) .

إن الأُعجوبة التي اجترحها الشهيد ، هي أنه أنشأ في وطنه نهضة من غير شئ . هكذا كمن يزدرع جنة غنّاء في صحراء يباب ، لا خصب فيها ولا ماء . فهذا بلد خرج عن قريب من احتلال إستيطاني ، ران عليه زهاء القرنين من الزمان ، كان أهلوه أثناءها يحيون حياة بائسة زريّة ، هي أشبه ما يكون بحياة العبيد . مقطوعين عن كل مصادر المعرفة . ومع ذلك فإنه نجح في أن يُنشئ فيه ، وبالتحديد في مسقط رأسه " جزين " ، حاضرة علميّة ، وإن شئتم قلتم حوزة ، مضت لقرنين من الزمان تلد حوزات إلى جنبها : " عيناثا " فـ " ميس " فـ " الكرك " فـ " مشغرة " فـ " جُباع " . أنجبت مئات الفقهاء ، منهم أسماء كثيرة غدت معروفة على طول عالم التشيّع المديد وعرضه . وتلك ، لعمري ، فريدة لا أظن أن لها ثانية .

عاشت نهضة " جبل عامل " مدة قرنين كما عرفنا . لتنتهي على يد العثمانيين ، مثلما أنهوا شبيهاتها في " العراق " . فقتلوا أعلى علماء الشيعة في " الشام " شاناً ، وشيخ " جُباع " آخر نبضة في نهضة " جبل عامل " .أعني زين الدبن بن علي الجُباعي ، الأكثر شُهرة بلقب الشهيد الثاني (ق : ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م) تلك الجريمة الغبيّة والنكراء معاً . الأمر الذي أثار حالة ذُعر عامة بين علمائه . وبعث الهجرة عارمة باتجاه " إيران " . ممّا وصفناه

في كتابنا (الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي) . حيث بدأوا صفحة جديدة في تاريخ التشيّع ، وفي مُسلسل حوزاته العلميّة . يمكن إعتبارها الحلقة الخامسة .

(٥)

من العسير أن نتكلم على نحو التفصيل فيما نشا من حوزات علميّة في " إيران " بفضل العلماء المهاجرين . فحيثما حلّ أحد المهاجرين كان يُنشئ من حوله حركة دراسة وتدريس ، وقام سوق التصنيف والترجمة على قدم وساق . ممّا وصفناه أيضاً في فصل برأسه من كتابنا نفسه . لكن أعلى هاتيك الحوزات شأناً هي تلك التي قامت في " قزوين " و " إصفهان " و " مشهد " . لكن الحقيقة أن ما من مدينة أو بلدة إيرانيّة كانت تخلو من حوزة بمعنى من المعاني . وذلك تقليد ما يزال ملحوظاً حتى اليوم في " إيران " . لكننا ، ونحن نتكلم على هذه الحلقة من نشأة وتطوّر الحوزات العلميّة ، لا غنى لنا عن التنويه بالخطوة ذات الأثر التي خطاها الشيخ عبد الكريم الحائري (ت : ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م) . إذ أحيا الحوزة العلميّة العريقة في " قم " ، وجعل منها ، إلى جنب " النجف ، الحوزة العلميّة المركزيّة ليس في " إيران " وحدها بل في العالم الشيعي كله . وغني عن البيان أنها ما تزال تتربّع في هذا الموقع ، خصوصاً بعدما حاق بـ " النجف " ما حاق بها ممّا نعرفه جميعاً .

(٦)

أخيراً إن واجب الوفاء لـ " النجف " يُملي عليّ أن أخصّها بمكان في هذا التأريخ لحلقات وهويّة الحوزة العلميّة . لكنني ، بوصفي معنياً بتاريخ الثقافة الشيعية ، لا أكتمكم أنني حائر فيما أقول عليها . لقد رأينا أن " قم " الأُولى أعطتنا نقد وتصنيف الحديث ، فضلاً عن أنها أُم الحوزات . و " بغداد " أعطتنا التنظير العقائدي . و " الحلّة " أعطتنا المنهج الفقهي العقلي ـ الإجتهادي . و نقول إن " جبل عامل " أعطانا الفقه العملي ، في جانبيه السياسي والإداري ، وهي نقطة أعترف أنها بحاجة لبيان لايتسع له المقام . فماذا أعطتنا " النجف " ؟ في الجواب أقول : باستثناء مساهمات أستاذنا السيد الخوئي الجليلة في علمي الرجال والفقه ، فإنها لم تُعطِ شيئاً . وأكاد أقول إنها أخذت أكثر ممّا

أعطت . لقد خسرت فرصتها الأُولى التي منحها إياها مجاناً الشيخ الطوسي . ثم ركبت موجة " الحلّة " ، لكن دون أن تُضيف إليها إضافة نوعيّة تُذكر.

* * * * *

والآن ، ماذا عن المستقبل ؟ أعني على وجه التخصيص مستقبل هذه الحوزات العلميّة في " لبنان .

من المعلوم أن هذه الحوزات لم تنبت عندنا هكذا دون مُقتضٍ . وأنها رد فعل صحّي في الأساس على تدمير حوزة " النجف " ، التي كانت الحوزة الرئيسيّة التي يتجه إليها طلابنا . لكن ما أراه ينتقص من مصداقيتها هو هذا التعدّد الذي لا مسوّغ له . ولو انها تجمّعت في العدد الملائم لكان ذلك بالتأكيد أوفى بما هو مطلوب منها .

ثم أننا قد رأينا أن نجاح الحوزات في الماضي كان على قدر وفائها بحاجة زمانها . وقد بيّنا ذلك في النماذج التي عرضناها . السؤال الآن : هل أن مناهج التدريس المعمول بها في حوزاتنا تناسب حاجة بيئتها علميّاً وثقافيّاً ؟ من المعلوم أن هاتيك المناهج تأسست شكلاً ومضموناً منذ قرون ، وأنه منذ تأسيسها لم يجرِ عليها تعديل يُذكر . ما هذا المنهج الإعجازي الذي لا يقبل التبديل ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ ثم كيف يخلو منهج لإعداد علماء في المعارف الإسلاميّة من أدني إهتمام بالعلوم المتصلة بالقرآن والحديث ؟ في حين يُصرَف وقت الطالب في دراسة علم لا أظن أنه يُفيد طالب العلوم الدينيّة في شئ هو المنطق الأرسطي الشكلي . ومثل هذا يُقال على دراسة المعاني والبيان والبديع . إلى غير ذلك ، وهو كثير .

ربما كانت الإيجابيّة الوحيدة للتعدّد غير الضروري في الحوزات العلميّة عندنا هو في أن تبدأ التنافس و العمل على تطوير مناهج الدراسة فيها في الشكل وفي المضمون . تطوير على قاعدة تعزيز الثقافة العامّة ، وتطعيم مناهج الدراسة بعلوم القرآن والحديث والتاريخ . فضلاً عن تشذيبها ممّا لانفع منه ، أو على الأقل ممّا هو أقلّ نفعاً . وغني عن البيان ، أن دراسة القرآن والحديث أولى من دراسة منطق أرسطو مثلاً .

هذه فرصة تاريخيّة برسم حوزاتنا ، تمنحها إذا عرفت كيف تفيد منها الخصوصيّة والموقع والجدوى . ولقد قدّمنا القول على أن ما منح الحوزات الكبرى في الماضي موقعها يكمن في خصوصيتها ، في نجاحها في تقدّم ما يُلبّي حاجة أساسيّة ، وضمناً في قراءة رجالها للحاضر والمستقبل .